بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم.

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ إنما يعنى: أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرة منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّت عدَّتُهم ، وقلّ عددهم.

إذن: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ .. ⦗١٤⦘ ﴾ [يونس]

أى: نظر واقع ، لا نظر علم.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا(١) بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ(٢) نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⦗١٥⦘ ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع: آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسميها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

---

(١) الآية: العبرة ، والآية: المعجزة أو الشيء العجيب. والجمع: آيات ، وآى. قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ .. ⦗٥٣⦘ ﴾ [فصلت] ، والآيات هنا: الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقيوميته. [لسان العرب: مادة (أيا) .. بتصرف].

(٢) التِّلقاء: مصدر لَقِيَ. يقال: يسرنى تلقاؤك أى: لقاؤك. ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة.

في الذكاء أو الجمال أو الخُلُق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هي الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شيء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعي الانتباه .

مثلما يحكي القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه في النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كألا يمكّنهم الحق - عزّ وجلّ - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله في غيّهم [1] ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

(١) الغَيّ : الضلال . غَوَى غَيّاً وغَوَايةً : أمعن في الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وتَغَاوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستغواه بالأمانيّ الكاذبة : طلب غيَّه وأضلّه . وقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) .. بتصرف] .

وهكذا تتجلّى أمامهم خيبتهم.

إذن: الآيات تُطلَق على الآيات الكونية، وتطلق على الآيات المعجزات، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله، وخلق الكون من الله، فهل هناك آية تصادم آية؟ لا؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات، والحق سبحانه هو القائل:

﴿.. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

وقوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ..(١٥)﴾ [يونس]

أى: آيات واضحة. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾

وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة. ومقابل الرجاء شىء آخر محبوب، لكن الإنسان يعلم استحالته، وهو التمنّى، فالمحبوبات - إذن - قسمان: أمور مُتمنَّاة وهى فى الأمور المستحيلة، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها، والقسم الثانى أمور نحبها، ومن الممكن أن تقع، وتسمى رجاء.

﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ هم مَن لا يؤمنون، لا بإله، ولا ببعث؛ فقد قالوا:

﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ[1] (٢٤)﴾ [الجاثية]

(١) الدَّهر: الزمان الطويل، ومدّة الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان]. وقال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» ومعناه: أن ما أصابك من الدهر، فالله فاعله وليس الدهر، فإذا شتمت الدهر، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون. [لسان العرب: مادة (دهر) - بتصرف].

وقالوا:

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعِدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ (١) بِقِيعَةٍ (٢) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ..(٣٩)﴾ [النور]

السراب: هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد. وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

إنه يُفاجَأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول:

(١) السَّراب: ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض. وهو من خداع البصر. وقد سُمّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى: يجرى جرياً ، أى: يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء.

(٢) القيعة: أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر. قال الفرّاء: القيعة جمع القاع ، والقاع: ما انبسط من الأرض. قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦)﴾ [طه]. [اللسان: مادة (قوع). بتصرف].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ [(١)] أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

رغم أن الكون الذى نراه يُحتِّم قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شىء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيَّتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً. وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التى تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك.

إذن : فللوردة دورة حياة. وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هى بعينها ؛ لم تَزِدْ ولم تنقص. وقد شرحنا ذلك من قبل. وكل شىء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً.

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه [(٢)] ؛ لأن النظر فى الكون وتأمُّل أحواله يُوجِب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود.

وسبحانه القائل :

---

(١) ضللنا فى الأرض : قال أبو منصور : الأصل فى كلام العرب أن يقال : أضللت الشىء إذا غيَّبته ، وأضللت الميت : دفنته. فالضلال من معانيه : الفساد والعصيان ونقيض الهداية والرشاد. ومن معانيه : التغييب والدفن. فكأنهم يقولون : «إذا دُفنَّا وغُيِّبْنا تحت الأرض.. فهل نحيا من جديد ؟» فيردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧) ﴾ [الروم]. [لسان العرب : مادة (ضلل) - بتصرف].

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] ويقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء].

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ .. (١٠٤)﴾[1] [الأنبياء]

وهؤلاء الذين لا يرجـون لقـاء الله يأتى القـرآن بما جـاء على ألسنتهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ..(١٥)﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان.

﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل. والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير[2] .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾.

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن آتى بقرآن غير هذا أو أبدله» ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل. ولكن التبديل هو الأمر السهل. وقد نفى

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم.

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٤٥) لهذه الآية. قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه:
أحدها: أنهم سألوه أن يحوّل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً. قاله ابن جرير الطبرى.
الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم. قاله ابن عيسى.
الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. قاله الزجاج.

الأسهل ؛ ليسلِّموا أن طلب الأصعب منفى بطبيعته.

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾

أي: أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ [1]. بل بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً.

إذن: فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ [2] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١)﴾ [النحل]

وهو ما تذكره هذه الآية: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ و﴿تِلْقَاءِ﴾ من «القاء» ؛ فتقول: «القيت فلاناً» ، ويأتى المصدر من جنس الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا: الجهة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ [3] .. (٢٢)﴾ [القصص]

---

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأماته.

(٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الحرج هو من مقاصد الشريعة ، يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع:

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة: كان فيما أنزل «عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات».

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً فى القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضى.

٣- وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية. انظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٥٩ - ٧٧).

(٣) مَدْيَن: اسم قرية شعيب - عليه السلام.

و﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى: جهة مدين. و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجّه إلى مكان معيّن فنحن نُوجَد فيه. ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول: لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ (١) الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال: «أخذ فلان شطر ماله» ، أى: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى: إلى جهة كذا.

وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق.

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصُّك ، فإن كان بصرُك قوياً فأفقك يتّسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق.

ويقال: «فلان ضيِّق الأفق» أى: أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مَرَاء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئى ، وخلفك نصف الكون المرئى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة».

---

(١) شَطر الشىء: ناحيته ، وشَطر كل شىء: نحوه وقصده ، وقصدتُ شَطْرَهُ أى: ناحيته. «وشَطرَ المسجد الحرام» : نحوه وتلقاءه. قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]. وشَطرُ الشىء: نصفُه ، والجمع: أشْطُر ، وشُطُور. وشَطَرتُه: جعلته نصفين. وشاطره ماله: ناصفَه. وفى الحديث: أن سعداً استأذن النبى ﷺ أن يتصدّق بماله كله ، قال: «لا» قال: فالشُّطر ، قال: «لا» ، قال: الثلث ، فقال. «الثلث ، والثلث كثير». وفى الحديث: «الطُّهور شَطر الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطّهور يظهر بحاشية الظاهر. [لسان العرب : مادة «شَطَرَ» - بتصرف].

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أي: أنه ﷺ لا يأتي بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أي: أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده ، ففي هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً. وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن في منتهى البلاغة.

وقد نزل الوحي ورسول الله ﷺ في الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجَّل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبي ﷺ قد أجَّل عبقريته إلى هذه السِّن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر.

ويأتي لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتَّبع إلا ما يُوحَى إليه فيقول:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتي الأمر بالرَّدِّ من الحق سبحانه على الكافرين:

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

وهنا يبلِّغ محمدٌ ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله: لقد عشت طوال عمري معكم، ولم تكن لي قوة بلاغة أو قوة شعر، أو قوة أدب. فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين، ورأيتم أنه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم، بل عندما اتهمتموه وقلتم:

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل في القرآن قوله تعالى:

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ(٢) وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ(١٠٣)﴾ [النحل]

ولم يخرج النبي ﷺ من شبه الجزيرة العربية، ولم يقرأ مؤلَّفات أحد. فمن أين جاء القرآن إذن؟

لقد جاء من الله سبحانه، وعليكم أن تعقلوا ذلك، ولا داعي للاتهام بأن القرآن من عند محمد؛ لأنكم لم تجرِّبوه خطيباً أو شاعراً، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ، بعد أن نزلت عليه الرسالة، هو بلاغ من عندالله.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسَب الكمال إلى إنسان فينفيه، فالعادة أن

---

(١) لحَدَ في الدين وألْحَدَ والْتحد: مال عنه، وحَادَ، وابتعد. والإلحاد: الجدال والمراء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ..(٤٠)﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ..(١٨٠)﴾ [الأعراف]. والإلحاد: الظلم والجور. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ..(٢٥)﴾ [الحج]. والإلحاد في اللغة: الميل عن القصد. وقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل] وأصل الإلحاد: الميل والعُدُول عن الشيء. والملتحَد: الملجأ؛ لأن اللاجيء يميل إليه. [لسان العرب: مادة (لحد) - بتصرف].

(٢) عجم: العُجْم والعَجَم: خلاف العُرْب والعَرَب. ورجل عَجَميّ وأعجميّ: غير عربيّ. قال أبو إسحاق: الأعجم: الذي لا يُفصح ولا يُبيِّن كلامه وإن كان عربياً. والعجمي هو الذي من جنس العجم أفصح أو لم يُفصح. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ(١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(١٩٩)﴾ [الشعراء].

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ،أو أن ينتحل[١] كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلِّغكم أن كمال القرآن ليس من عنده،بل هو مجرد مبلِّغ له ، وكان يجب أن يتعقَّلوا تلك القضية بمقدِّماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان[٢] ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً[٣] .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس]

إذن: فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم[٤]، فإن قلت:

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران]

أي: أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من أمة العرب ، لا من أمة العَجَم ، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من قبيلتهم التي يكذِّب أصحابُها رسولَ الله ﷺ .

إذن: فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يَغبْ عنكم فترة ؛ لتقولوا

---

(١) ينتحل الشيء : ينسبه إلى نفسه . نحله القول: نسبه إليه . ونُحِل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قيل غيره . [لسان العرب : مادة نحل] .

(٢) العنان: عنان اللِّجام: السَّيْر الذي تُمسك به الدابة ، والجمع : أعنَّة . والعنان: الحبْل . والمراد هنا: تشبيه الأفكار بالبعير الذي له عقال أو عنان ؛ إذا أرخيته له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للدَّواب كالعقل للإنسان فإذا فسد العقل ضلّ صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره يضلّ . [لسان العرب : مادة (عنن) - بتصرف] .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] .

(٤) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] .

بُعثَ بعثةً ؛ ليتعلَّم علماً من مكان آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم ولا إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتْلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة ؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ فى الأربعينات ، ولكن مخايل العبقرية إنما تنشأ فى نهاية العقد الثانى وأوائل العقد الثالث ، فمن الذى أخَّر العبقرية عند رسول الله ﷺ ليقول هذا القول البليغ الذى أعجزكم ، وأنتم أمّة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون [1] عليها من قديم ، وعجزتم أمام ما جاء به محمد ﷺ ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حَلَّ لكم اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندى ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛ لأنه ﷺ يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه . والدليل على أنكم مضطربون فى الحكم أنكم ساعة يقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ، تكذِّبونه ، وتقولون : لا ، بل هو من عندك ، فإذا فَتَرَ عنه الوحى مرةً قلتم : قلاه [2] ربُّه .

لماذا اقتنعتم بأن له رباً يَصِلُه بالوحى ويهجره بلا وحى ؟

أنتم - إذن - أنكرتم حالة الوصل بالوحى ، واعترفتم بالإله الخالق عندما غاب عنه الوحى ، وكان يجب أن تنتبهوا وتعودوا إلى عقولكم ؛ لتحكموا على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر فى كثير من آياته ، يقول سبحانه :

---

(١) المرتاضون : الذين لهم دُرْبة ، قد ذللت ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة .

(٢) قلاه ربه : أبغضه وتركه . ولذلك قال له ربه : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى] .

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[2] مَرْيَمَ (٤٤)﴾[آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[3] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ..(٤٤)﴾ [القصص]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[4] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥)﴾ [القصص]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدِّمات ؛ لتحكموا بأنه صادق فى البلاغ عن الله ؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة فى أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله

---

(١) أقلامهم: سهامهم ، وقيل: أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة . قال الزجاج: الأقلام هنا: القداح . وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم ، على جهة القُرعة ، وإنما قيل للسهم: القلم ؛ لأنه يُقلَم ، أى: يُبْرَى . وكلّ ما قطعت منه شيئاً بعد شىء فقد قلّمته ، من ذلك القلم الذى يكتب به ، وإنما سُمّي قلماً ؛ لأنه قُلم مرة بعد مرة ، ومن هذا قيل: قلّمتُ أظفارى . قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان]. [لسان العرب: مادة (قلم) - بتصرف].

(٢) يكفل: يعول ، والكافل: العائل . قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧)﴾ [آل عمران] .

(٣) الغربىّ: الجبل الغربىّ الذى كلّم الله سبحانه نبيّه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى المقدس (طُوًى) . [تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩١ - بتصرف].

(٤) ثاوياً: مقيماً والثواء: الإقامة ، ثويت بالمكان: أقمت فيه . قال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ..(١٥١)﴾ [آل عمران] . [لسان العرب: مادة (ثوا) - بتصرف].

سبحانه وتعالى مُنَزَّه عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذى ينبّه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل.

وقول الحق سبحانه فى آخر الآية: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يدلنا على أن القضية التى كذّبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدمات المُحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التى يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكّروا وقالوا: محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلّم ، ولم يَغبْ عنا فترة ليتعلّم ، وظل مدة طويلة إلى سنّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جاءته هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها: من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءته من عندالله ، فكان يجب أن يصدّقوه.

ومهمة العقل دائما مأخوذة من اشتقاقه ، «فالعقل» [1] مأخوذ من «عقال» البعير. وعقال البعير هو الحبل الذى تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوفّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك، إلى أن نحتاجه فى حركة.

إذن: فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم المَلَكات ؛ لأن كل مَلَكَة لها نزوع إلى شىء ، فالعين لها مَلَكَة أن ترى كل شىء ، فيقول لها العقل: لا داعى أن

---

(١) العقل : النُّهى ، ضد الحمق ، وعقل يعقل فهو عاقل. قال ابن الأنبارى: الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل : العاقل هو الذى يحبس نفسه ويردّها عن هواها. والعقل: التثبُّت فى الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل: لا تسمعى إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك [١].

إذن: فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح. وكذلك كلمة «الحكْمة» ، مأخوذة من «الحَكَمة» [٢] وهى فى «اللِّجام» الذى يوضع فى فم الفرس ؛ حتى لا يجمح ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى تريده.

إذن: شاء الحق سبحانه أن يميِّز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين لملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المُحَسَّة التى تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ [٣] عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أأكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جرَّبتموها ، أفأكذب على الله ؟! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

---

(١) وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء].

(٢) حكَمة اللجام: ما أحاط بحَنَكَى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد. وقيل: الحكمة حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه. [لسان العرب: مادة (حكم)].

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٨٢) وقال: إسناده حسن.

(٣) افترى: اختلق. الفرية: الكذب. و«افترى» تفيد المبالغة فى الكذب.

فى الكبَر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟

وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب. فإذا كنتم أنتم تتهموننى بذلك ، فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم كذبتمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت: إنه من عند نفسى لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدَّعى. ولكن أرفعه إلى غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم.

وقوله الحق: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى: لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلِّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله سبحانه.

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقدها ، لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ يبين لهم رسول الله ﷺ : إن قلتم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من يكذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبوننى وتدَّعون أنى أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتُكذِّبون بالآيات وتقولون هى من عندك ، وهى ليست من عندى ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتى من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع فى أكثر من موقع ، مثلما يأتى القول الحق مبيِّناً أدب النبوة :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [1] .. (٢٤)﴾ [سبأ]

وليس هناك أدب فى العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذى يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفى ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أى القضيتين هى الهدى ، وأيهما هى الضلال [2] .

وفى ذلك ارتقاء للمجادلة بالتى هى أحسن من رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهو لون من ألوان البديع فى القرآن ، وتعريفه : « أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به » (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلى ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ، فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : « والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٣٨) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...(٢٥)﴾ [سبأ]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجريمتك لن أسأل أنا عنها ، وجريمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجرام لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختار الأسلوب الذى يُهذِّب ، لا ليهيِّج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبنى الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[1] ﴿١٨﴾﴾

(١) قال الجوهرى : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل » ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكأنه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . [اللسان : مادة (شرك) بتصرف] .

وكلمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ تقتضى وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك آمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الآمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع يطيع المأمور الآمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتنبت نهيه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شىء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشىء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشىء ولم تنه عن شىء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهى ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهى .

إذن : فمن الحمق [1] أن يعبد أحدٌ الأصنام ؛ لأنها لا تضر من خالفها ، ولا تنفع من عبدها ، فليس لها أمر ولا نهى .

ومن أوقفوا أنفسهم هذا الموقف نسوا أن فى قدرة كل منهم أن ينفع الصنم وأن يضره ، فالواحد منهم يستطيع أن يصنع الصنم ، وأن يصلحه إذا انكسر ، أو يستطيع أن يكسره بأن يلقيه على الأرض . وفى هذه الحالة يكون العابد أقدر من المعبود على الضر وعلى النفع ، وهذا عين التخلف العقلى .

إذن : فمثل هذه العبادة لون من الحمق ، ولو عُرِضَتْ هذه المسألة على العقل ؛ فسوف يرفضها العقل السليم .

وعندما تجادلهم ، وتثبت لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ، تجد من يكابر قائلاً : ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ وهم بهذا القول يعترفون أن الله هو الذى ينفع ويضر ، ولكن أما كان يجب أن يتخذوا شفيعاً لهم عند الله ، وأن يكون الشفيع متمتعاً بمكانة ومحبة عند من يشفع عنده [2] ؟

ثم ماذا يقولون فى أن من تُقدم له شفاعة هو الذى ينهى عن اتخاذ الأصنام آلهة وينهى عن عبادتها ؟

وهل هناك شفاعة دون إذن من المشفوع عنده ؟ من أجل ذلك جاء الأمر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

---

(١) الحمق : وضع الشىء فى غير موضعه ، والحمق : ضد العقل أو قلة العقل وضعفه . والحميقاء : الخمر ؛ لأنها تعقب شاربها الحمق . والأحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت ، فكأنه فسد عقله حتى كسد . قال ابن الأعرابى : الحمق أصله الكساد . ويقال : الأحمق الكاسد العقل . والحمق أيضاً : الغرور . وانحمق الرجل : ضعف عن الأمر . [اللسان : مادة (حمق)] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه] ، إن ادعاء المشركين أن الأصنام تشفع لهم عند الله - ادعاء باطل ومع بطلانه اعتراف منهم بأن الشفاعة لا تكون إلا من الله سبحانه وشفاعة الله لا تكون إلا لحبيب ومحبوب يعمله فرضاً وفضلاً .

﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. (١٨) ﴾ [يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. (١٦) ﴾ [الحجرات]

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرِّعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شىء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شىء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنَزَّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنَزَّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره في تجارة ما ،ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد في ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟

إن الحق سبحانه يقول :

﴿قل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذًا لأبْتَغَوْا [1] إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلي أن لهؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شيء إلا بابتغاء ذى العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال في الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد في النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملكوت .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء في الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدَّعى لنفسه صناعتها ؛ لأن الجنس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ،ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هي التي خلقت هذه الكائنات . كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعَى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور .. (٤٨)﴾ [التوبة] [اللسان : مادة (بغى)] .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له . وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التى وهبها للإنسان ، فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهرباء جهد العلماء الذين درسوا علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح الكهربى ، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجة التى يوضع فيها السلك الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أتفه الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ، وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه .

وأنت بما تبتكره و تصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذكى حقاً هو من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس (١) - ضمن ما خلق- وإذا أشرقت أطفأ الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهدى الجميع ، وإذا كان ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته . ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى تحمينا من أن نصطدم بالأشياء فلا تحطمنا ولا نحطمها، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٣٣) ﴾ [الأنبياء] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلاني جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل ويقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل فى كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعياذ بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشركة تقتضى طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوى وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساوٍ لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

وقد جاءت آية فى سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه فى سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ[1] .. ﴿٢١٣﴾﴾ والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

---

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلفوا فى عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ؛ فاهتدوا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] ، فاختلفوا بعبادة غير الله ؛ فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واهتدوا بعقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها فى المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعانى فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالى الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل فى ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذى خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضَنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ،ولا يضمن لهذه المادية قيمًا تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة]

لذلك فَهِمَ البعض أن الناس كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذى شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى [(١)] ؛ لأن الأصل فى المسألة هو الإيمان لا الكفر [(٢)] .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ..** (٢١٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذى حدث بين الناس جاء فى آية البقرة فى المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف فى هذه الآية فى المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان [(٣)] ، فليس هناك أناس أَوْلَى من

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٥٠) .

(٣) إن تصدير الاختلاف فى آية سورة يونس وتأخيره فى سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام فى آية الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان فى مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين فى أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ [1] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجون [2] إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذى وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طولاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا [3] لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦)﴾ [الحج]

---

(١) بكة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخل فيه البيوت . وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم مبدلة من الباء . ثم قيل : بكة مشتقة من البك وهو الازدحام أي : ازدحامهم في موضع طوافهم . والبك أيضاً : دق العنق ، وسميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم . بتصرف من تفسير القرطبي (٢/ ١٤٨٦) .

(٢) يحجون إليه : يقصدونه بشد الرحال إليه للعبادة والتعظيم . قال الجرجانى فى كتابه : « التعريفات » (ص ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشيء المعظم ، وفى الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة فى وقت مخصوص بشرائط مخصوصة فى أماكن مخصصة » .

(٣) بوأنا له : أنزلناه بمكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوّء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان لينزل به . وبوأنا له : هيأنا له المكان ومكناه منه . قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦)﴾ [يوسف] . [اللسان : مادة (بوأ) - بتصرف] .

وهكذا يَصْدُق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذي طرأ على البشر من بابين: باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء.

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن ميثاق الذر ، قال:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [1] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن: فالتعصِّي عن الحكم الإيماني مدخله بابان: الأول باب الغفلة ، أي: أن تكون قد علمتَ شيئاً ، ولم تجعله دائماً في بؤرة [2] شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشتَّتَ الفكر في أكثر من أمر ، فإن كنت صافي الفكر ومتنبهاً إلى المعلومة التي تَصِلُكَ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة.

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر في حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خال من أي معلومة غيرها ، فتثبت في بؤرة

(١) ذريّة الرجل: ولده ، والجمع: الذريات والذراري. قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ .. (٣٤) ﴾ [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذَرَأَ الله الخلق ، أي: خلقهم. فالذرية: اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مهموزة ؛ وقيل: الذرية أصلها من الذَّرّ بمعنى: التفريق ؛ لأن الله تعالى ذَرَّهم في الأرض ، أي: فرَّقهم. [اللسان: مادة (ذرر)].

(٢) بأر الشيء: خبأه وادَّخره. ومنه قيل للحفرة: البؤرة. ومنها بؤرة الشعور أي: حفرة ومركز الشعور الذي يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التي تواجهه. انظر لسان العرب (مادة: بأر).

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة فى بؤرة الشعور ، وحين تأتى معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى .

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال- أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى [1] ؛ ليركّز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل فى الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدى من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يُضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرسُ جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها [2] .

وقد نجد طالباً فى صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتى فى الجزء الفلانى من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر فى بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال فى الجزء الذى قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة .

---

(١) ولذلك أرشد العلماء طلاب العلم أن يقللوا علائق الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق - كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى - فى إحيائه (كتاب العلم) « شاغلة وصارفة و﴿ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ...(٤)﴾ [الأحزاب] ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن دَرْك الحقائق ؛ ولذلك قيل : «العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك» والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشّفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع » . قال الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (١/ ٥٠٤) : «لذا كرهوا للمتعلم الاشتغال فى درسين فى علمين مستقلين لئلا تتوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول» .

(٢) وأمر تخلية الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شىء حَثّ عليه حديث رسول الله ﷺ بالنسبة للصلاة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٠) والأخبثان هما البول والبراز . فكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله عنه شىء .

ولذلك فالتلميذ الذكى هو من يقوم بما يسمِّيه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى: أن يقرأ الدرس ثم يغلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه: «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة ؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحَتْ له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه.

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه.

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليثير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقى درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة.

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهى ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهى إلى أن يأتى الران [1] الذى قال عنه الحق سبحانه:

﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]

ويبين النبى ﷺ ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة فى جذر [2] قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة». ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة

(١) الرين: الطَّبع والدَّنس. وهو كالصدأ يغشى القلب. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يسوادّ القلب. بتصرف من لسان العرب (مادة : رين) والرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطَّاه كله. قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين].

(٢) جَذْر كل شيء: أصله. ومنه هذا الحديث: جَذْر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها. (اللسان مادة : جذر).

من قلبه ؛ فيظل أثرها مثل أثر الوكْت[1] »[2] أى : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتى الرَّانُ على القلب.

إذن: فالغفلة تتلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان فى نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا. ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويذوق حلاوته[3]. ومثال هذا: المسلم الذى يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرْهقاً وفى ضيق.

ولذلك جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأىّ قلب أشْربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[4].

إذن: فالغفلة هى أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

---

(١) الوكتة : الأثر فى الشىء ، كالنقطة من غير لونه ، والجمع : وكت. وفى الحديث: «لا يحلف أحد ولو على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وكتة فى قلبه» . ومنه فى حديث حذيفة : « . . ويظل أثرها كأثر الوكت». [اللسان : مادة (وكت)].

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو حديث طويل ، هاتان قطعتان منه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» متفق عليه. أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان.
مثل الصفا: الصخرة الملساء العريضة.
مرباداً : أسود مشوباً بغبرة.
كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعُروة.
مجخياً : مائلاً ، أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه. [انظر لسان العرب مادة : جخى].

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلِّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية . وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده .

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا [1] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

وإلْف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبَّق كل مطلوب لله [2] ، فإن قلت : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطرى ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطرى من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص .

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة فى القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين فى القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف]

ولم يقل : «مهتدون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ أباه قدوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن أباه على حق .

إذن : فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان : تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى .

---

(١) ألفينا : وجدنا . يقال : ألفيت الشيء إذا وجدته وصادفته ولقيته . انظر اللسان مادة (لقى) .

(٢) إن آدم عليه السلام طبَّق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التى نُهى عنها ، فكان نسياناً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا .. (١١٥) ﴾ [طه] وهذا لا ينافى أنه طبق كل المطلوب .

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبى فقط [١] ؟ فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول : وهل من المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [٢] فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]

والذى أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيرا سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة؟

ولم يفطن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿ .. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام: ﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذى طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء. وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله الحق: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [٣] .. ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]

---

(١) هناك فرق بين النبى والرسول ، فالنبى هو من نُبِّىءَ وأوحىَ إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ قومه رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نبى رسولاً .

(٢) خلا : مضى . أى: مضى وأرسل. ويقال : القرون الخالية: الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ .. ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة].

(٣) القربان: ما قُرِّبَ إلى الله - عز وجل - وتقرَّبت به ، تقول: قرَّبتُ لله قرباناً. وتقرَّب إلى الله بشىء ، أى: طلب به القُرْبة عنده تعالى. قال الليث: القربان ما قرَّبت إلى الله ، تبتغى بذلك قربة ووسيلة. [اللسان : مادة (قرب) - بتصرف].

وابْنَا آدم عليه السلام قد قدَّما القربان إلى الله تعالى. إذن: فهما قد عرفا أن هناك إلهاً.

وحين قال قابيل لأخيه: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]

ثم في قول هابيل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة]

إذن: لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلَّغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ [1] سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه - قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام - كان يعاقب مَن يكذِّب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل، يقول سبحانه:

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا [2] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ [3] وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ [4] وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

---

(١) وعد الله سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [ابن كثير ٢/ ٤١١].

(٢) الحاصب: ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض، فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٣) عُذِّب بها قوم ثمود، جاءتهم صيحة أصمَّت آذانهم وأخمدت منهم الأصوات والحركات. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٤) الخسف: إذهاب الأشياء في الأرض. وخُسف بالرجل: إذا أخذته الأرض وغاب فيها، وقد عُذِّب بهذا قارون. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

أي: أنه سبحانه قد أجَّلَ الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة. وهذه الكلمة التي سبقت، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم في الدنيا، ولكنه يؤخِّر ذلك إلى يوم الجزاء. ويقضي سبحانه في ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه في جانب من أرسله، لا من عاند رسوله ﷺ.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ[1] أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾

والآية كما عرفنا هي الشيء العجيب، وإما أن تكون آية كونية، أو آية إعجاز، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام.

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن، وهي معجزة بالنسبة إليهم؟

نقول: إن استقبال القرآن فَرْع تصديق للرسول ﷺ، وقد حدث اللبس عندهم؛ لأنهم ظنوا أن الآية هي الآيات المحسّة الكونية المشهودة، وما علموا أن الآيات التي سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتحضيض، مثل (هلا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. (٤٦)﴾ [النمل] وتدخل على ماضٍ في تأويل المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠)﴾ [المنافقون] أي: لولا تؤخرني، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضي كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ .. (١٣)﴾ [النور]، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها في كتب اللغة [القاموس القويم: ٢/ ٢٠٧، ٢٠٨].